روندا الأسبانية

مدينة الأساطير ومتحف لقطاع الطرق

بقلم دومينيك ميرل
روندا-أسبانيا

لقد أثبت علماء الشفرة الوراثية مؤخرا أن العظام المحفوظة في كاتدرائية أشبيلية هي في الواقع، تماما مثلما كان أهل إشبيلية يقولون دائما، عظام كريستوفر كولومبيس. وهذا هو دليل ادعاؤهم، ذلك أن هناك عددا من البلدان الأخرى أكثر احتجاجا، مثل كوبا وجمهورية الدومينيك، تبقى دعاواها، بأن المكتشف المشهور مدفون فيها، غير مقنعة. وهكذا فإن كولومبس المسكين، أما أنه توفي عددا من المرات، وأما أن عظامه قد توزعت في البلدان.

Granada Palace.

قصر غرناطة.

وفي كل نواحي المنطقة الجنوبية من الأندلس، هناك عدد من "المدن الجميلة" التي تحوي رفات الرجال العظام في التاريخ، مثل الرسام بيكاسو في مالقا، ومصارع الثيران مانوليته في قرطبة وآخر الملوك الكاثوليك في غرناطة. ولكن لم يدفن أحد مشهور في مدينة روندا الصغيرة، مع أن أورسون ويلز عاش هناك لفترة من الزمن، وكتب همنغواي، وشرب ونام هناك مرات كثيرة، والمغنية المشهورة، مادونا، أجّرت ملعب مصارعة الثيران لحفلة غنائية لها. وفيما عدا ذلك فإنها مدينة صغيرة حالة في جنوب أسبانيا، نفوسها حوالي 35 ألف نسمة، ولذا اخترناها محطة لتوقفنا. وببساطة، لقد أردنا زيارة مكان لم نسمع به من قبل وليس معتادا لدى السياح. ←

برج الكاتدرائية–قرطبة. Cathedral tower, Cordoba.

أشبيلية. Seville Santa Cruze District.

وقد خالفنا ما جاء في جميع أدلة السياحة، والتي تنصح بقضاء نصف نهار في أقصى الأحوال، فقد قررنا قضاء ليلتين في روندا كجزء من سفرتنا التي بدأت في أشبيلية واستمرت بشكل قوس يشمل قرطبة وغرناطة.

وقد دهشنا بضخامة كاتدرائية أشبيلية، وهي واحدة من أكبر الكاتدرائيات في العالم، بالإضافة إلى الاحتفالات والطعم الخاص في العاصمة الأندلسية نفسها، وكنا مندهشين بحجم وعظمة كاتدرائية قرطبة، والتي كانت ذات يوم مسجد قرطبة الكبير. وغادرنا وأفواهنا مفغورة بعد تأمل قصر/ قلعة الحمراء ذي الامتداد الشاسع في غرناطة والذي يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي. ولكن ما لامس قلوبنا في روندا هو عمل بسيط لشاب حساس، وسيأتي الكلام عنه فيما بعد. وتقف روندا على حافة صخرية تمثل حائطا انحداره 180 م 591 قدما تقريبا، ووقفتها مؤدبة متواضعة من حيث التصميم، تاركة المنظر الطبيعي الرائع ليحتل موقع الصدارة. وأكثر المناظر الطبيعية جاذبية هو النهر المتحدر في شق جبلي يسمى "التاج". وعلى جانبي هذا الشق تقف البيوت وكأنها تمسك بأرضها بقوة من أجل سلامتها، بادية وكأنها جاهزة للانزلاق لدى أية دفعة بسيطة.

وبسبب هذه الأرض الصخرية، فقد كانت روندا آخر مدينة موريسكية تسقط بيد الصليبيين. وهناك جسر مقوس، البويرتو نويفو، منصوب على الشق وهو يربط بين الحي الموريسكي القديم في المدينة، لا ثيوذاد، والجزء الحديث، المركاذيو. وقد وصف الجسر بأنه إحدى العجائب المعمارية لدى إنشائه في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وقد سقط منه العديد من الناس وتوفوا عبر السنين، إما كحادث عرضي أو غير ذلك، وبضمنهم المعماري الذي صممه، وذلك عند تفقده للجسر. وقد وصف همنغواي كيف أن السجناء كانوا يرمون أحياءً من فوقه خلال الحرب الأهلية في أسبانيا.

لقد أقمنا في الفندق الحكومي، برادور دي روندا، على حافة الشق، في المركاذيو. وقد وفرت لنا تلك الإقامة المشي عبر جسر البويرتو نويفو واستكشاف الحي الموريسكي القديم، وهو متاهة من الشوارع والأزقة، وبيوت بيضاء اللون ذات شرفات جديدة. وتقع في وسط الحي القديم كنيسة سانتا ماريا والتي تنفتح واجهتها على ساحة كبيرة. وشأنها شأن كنائس الأندلس، فقد بنيت فوق جامع، وهو في هذه الحالة مسجد روندا الكبير. وقد نصب برجها فوق منارة المسجد القديمة. وبالقرب منها قصر المنظراغون. وقد كان في القرن الرابع عشر الميلادي قصرا للملك الموريسكي أبو ليمش، كما أن هناك حمامات عربية في حالة جيدة منذ تلك الفترة.

وفي وقت متأخر من اليوم نفسه، عرجنا بالسيارة على ما يسمى بـ"مدن الأندلس البيضاء"، وهي مجموعة من القرى الجبلية القريبة والتي صبغت بالبياض آلاف المرات. وبعض البيوت والمحلات التجارية قد نحتت في صلب التلال، والبعض الآخر يبدو وكأنه خرَّ من السماء، وقد نزلت على مدى إجّات من بعضها البعض الآخر، وكأن ما تراه منها مأخوذ من صفحات من كتاب أسطوري.

ولدى العودة إلى روندا في ذلك المساء، توجهت مع زوجتي ودليلنا خافير إلى المركاذيو القريب من فندقنا ودخلنا مقهى صغيرا اسمه فلوريس، وقد سمي، كما قيل لنا، باسم قاطع طرق شهير قبل سنوات كثيرة. وكانت هناك صورة ديك مؤطرة، ولما كنا ممن يجمع التحفيات التي تصور الديكة، فقد جذبت الصورة نظرنا.

والواقع أنها لم تكن صورة جيدة، ورغم ذلك فقد طلبنا من الشاب الذي يقف خلف طاولة الحسابات، وعبر دليلنا خافير، أن يبيعنا إياها. وقد تصرف الشاب بحياء معتذرا أنه لا يريد بيعها لأنه أصبح نفسه متعلقا بها، ولكنه سيعمل نسخة منها ويسلمها لنا في فندقنا في الليلة التالية. وشكرناه واستمتعنا بقهوتنا الأسبانية القوية.

وقد صرنا بسرعة أصدقاء معه نتخاطب ←

كاتدرائية أشبيلية.
Seville Cathedral.

الحمراء–غرناطة.
Alhambra, Granada.

بالأسماء الأولى. وقد أخبرنا الشاب خلف طاولة الحسابات، واسمه بيدرو، وكان خافير يترجم لنا، أن التاباس، الأكلة السريعة التي يتذوقها الأسبان في منتصف النهار وفي أول الغروب، مصدرها روندا. وأنا متأكد من أن قصده حسن، ولكن في سفرة أسبانية سابقة، سمعت الأمر نفسه في طليطلة. وحتى اليوم، فإن كلا من كوبا وجمهورية الدومينيك قد دخلتا هذا النزاع.

وزرنا في يومنا الأخير ساحة بلاثا توروس، وهي أقدم ساحة مصارعة ثيران في العالم (1785 م). وقد أقامت مادونا فيها حفلة غنائية قبل سنوات. وقد أحدث ذلك ضجة في المنطقة، كما قيل لنا، لأنه بالرغم من كون مصارعة الثيران أمرا نادرا في روندا هذه الأيام، فإن هذا الملعب قد أصبح شبه مقدّس لدى الأهالي، وأن دوران مادونا راقصة فيه هو تدنيس لقدسية المكان لدى الكثيرين. وما يزال هذا الموضوع ساخنا.

ولكن بالرغم من أن مصارعة الثيران تتم مرة في السنة غالبا، فإن الملعب يتحول إلى سوق شعبية مرتين في الشهر حيث يتهافت عليه الغجر من أنحاء الأندلس المختلفة وهم يحملون بضائعهم. وأفضل أبواب التسوق في أسبانيا كلها تتم في هذا السوق، كما يقول الأهالي. ولا يبدو أن أحدا حتى الآن قد اعترض على تحويل الملعب إلى سوق شعبي.

ومحطتنا الأخيرة كانت في "متحف قطّاع الطرق" (لاس باندوليروس)، وهو يختص بشخصيات الماضي الرومانسية الذين كانوا لدى البعض قتلة، ولدى آخرين روبن هود. وقد جذبت روندا، بطبيعتها الجبلية، الكثير من قطاع الطرق بسبب أماكن التخفي الكثيرة والتي تشبه الكهوف. وأشهرها التميرانيو (الطير المبكر) الذي بدأ بارتكاب القتل وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره، وقد زعم أنه كان يسلب الأغنياء ويساعد الفقراء، حتى قتل على يد قاطع طريق آخر في عام 1833 م وهو في سن الثامنة والعشرين.

وفي عودتنا إلى الفندق تلك الليلة، توجهنا نحو عشائنا. ولم تبد أية علامة من صورة الديك التي سيبعثها بيدرو. وفي منتصف العشاء، جاء مستخدم في الفندق إلى طاولتنا وهو يحمل صورة ورسالة. وكانت تلك هي صورة الديك، وهي موضوعة في إطار. والرسالة من بيدرو. وترجمة الرسالة مفادها أنه يريد منا أن نأخذ الصورة هدية منه. ويقف الديك اليوم شامخا في بيتنا. وهو واحد من أفضل التحفيات التي جنيناها من رحلاتنا حول العالم.

وفي الختام، فإن روندا ربما لا تحوي رفات كولومبوس، أو بيكاسو، أو مانوليته، ولكن يحسن بك أن تعطيها أكثر من سفرة نصف نهار، هذا إذا ما ذهبت إليها. والرجاء البحث عن بيدرو، الشاب ذي النفس الحساسة الذي لمس قلوبنا بعطفه. ■